حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور

محمود المنحوري

مدرسة تاجور

محمود المنجوري

من الصور التي لازمت خيال تاجور منذ كان طفلاً صورة ذلك المكان الذي اتخذه ابوه في ظاهر مدينة « بلبور » بين الغابات ، يتعبد فيه ويلقي على الناس دروس الحكمة والتأمل في ابداع الله العظيم . . فلقد نشأت صورة هذا المكان الذي كان يأوي اليه والده طول اليوم ، مفكراً هادياً الى صراط مستقيم ، ذات أثر بالغ في نفس تاجور وكان باراً بذكرة والده الحكيم عندما هاجر في سنة ١٩٠١ الى هذا البيت الذي أنشأه أبوه واتخذ منه مسكناً ومعبداً ومكتبة وحديقة ، وجعله مثابةً يحاول فيها تنشئة جيل يحب الطبيعة ويحنو عليها ، طِبْقَ رسالته التي كان يحسّ في دخيلته بوحي ادائها الى أهل وطنه . ورأى تاجور ان تكون المدرسة وليدة البيئة التي ينشأ فيها الطفل لا تعلو عليها ولا تنخفض عن مستواها والاّ اخرجت جيلاً غير صالح لبيئته . ولما كانت مدنية الهند قد نشأت اول امرها في الغابة فهي حضارة ذات قيم متصلة بالتفكير غير المحدود ومرتبطة أشد الارتباط بالتعارف بين روح الكائنات

« ولهذا كانت الفكرة الاساسية التي بنى عليها نظام مدرسته هي تحبيب الطبيعة الى الطفل واستبقاء الصلة بالدراسة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ، وليس نجاح هذه المدرسة يرجع الى الفكرة الفلسفية التي بنى عليها نظام التعليم فيها ، ولكن حب تاجور للطفل وميله الشديد الى خدمة أمته بل وخدمة الانسانية من هذه الطريق دفعاه الى تخصيص أكبر جزء من وقته لتحقيق هذا القصد السامي (١)

نشأ تاجور يتيماً ، فأحس مرارة اليتم اذ حُرم عطف الأم صغيراً ، ورأى والده منصرفاً عنهُ الى عبادة الله ، يذهب كل يوم الى دارم بالغابة يحدث الناس فيها عن أثر الخالق في أنفسهم ، وفيما ينظرون ، ووجد في أفراد اسرته العلماء والفلاسفة والمفكرين الذين تأثروا أبلغ التأثير بتعاليم « يوبانيشاد » واتبعوا أحكم بوذا في ايصال الروح البشرية بالعالم الذي يحيط بها ، وبالحقيقة المطلقة التي تتصل بسرّ الوجود ، فنمت روحه وأشرفت على المعاني السامية التي أرادت التعبير عنها . وكان قد أصابه في صباه ما أصاب أطفال الهند من عنت وسوء معاملة في مدارس عهده ، فأراد وهو المصلح الانساني ، ان يعالج امراً شعر بالنوائه ، وفي اصلاحه تنشئة جيل جديد ، على افكار ومبادىء انسانية خالية من الشذوذ والاخطاء ، بعيدة عما

(١) خطبة التمس بها وزير المعارف ورئيس لجنة الاحتفال بتاجور في مصر سنة ١٩٢٦

يلقي بالتفكير والعواطف والمدارك في طريق التعصب والشذوذ وعما ينأى بالروح عن مرافق الحياة السامية المتصلة بجمال الطبيعة

لقد كانت المدرسة في طفولة تاجور تقوم على نظام قديم أنشأه حكماء الهند منذ زمن بعيد ، فكانت المدرسة تؤسس في مكان بعيد عن المدينة ، بين الغابات ، يشرف على جمال الطبيعة ومباهجها ، فكانت حقاً كما أطلقوا عليها «مدارس الغابات» أو كما كانوا يسمونها «أسرم» . ولكنها لم تكن في الحق مدرسة تدرس فيها العلوم المتصلة بالحياة ، بل كانت هياكل نسك ورهبنة وتلقين لمبادىء الدين وتعاليمه طبق عقائد الهند القديمة . وكان كل طفل يوضع في رعاية شيخ كانوا يسمونه « جورو » او العريف الحكيم ، يتلقى الطفل عنه مبادىء التفكير والعلم واللاهوت والحكمة ، متدبراً مباهج الطبيعة وآثارها المختلفة من سماء ونجوم وأقمار ورعود وأنهار وأشجار وأزهار وهوام وحيوان وانسان

هذا النظام القديم راق تاجور ، ووجد فيه خير عون له على تنشئة جيل يحب الطبيعة ويدرك جمالها وأسرارها ، ولكنه أراد ان يرفع عن هذا النظام ما كان يشعر به في طفولته من عوج وشذوذ فيه ، فذكر ان الهند أصبحت في غير حاجة الى معابد للصلاة ، ولا الى مدارس تقام فيها الشعائر وحدها ، ولكن الهند في حاجة الى «مدرسة الغابة» حيث يجتمع الى جمال الطبيعة تفكير العلم وثقافة العقل البشري ، وحيث يتحد قلب الحياة بتفكيرها ، فتسمو المدرسة الى معبد روحي ، يحبب الطبيعة والجمال والمعاني السامية الى الاطفال ، ويصل بهم دون وعي منهم الى الروح ، التي يجب ان تصدر عنها جميع اعمالنا الخيرة

ودراسة طبيعة الطفل ، وانشاء الصلة بينها وبين ما حول الطفل من بيئة ، وتقوية الروح والارادة والادراك ، كل هذه مجتمعة هي الاسس الأولى التي بنى عليها تاجور مدرسة (شانتي نكتان) في عهدها الجديد سنة ١٩٠١ . ولكن فكرة المدرسة القديمة مدرسة الغابة كانت هي الجوهر الاساسي لهذا النظام لانها كانت في الحق الفكرة المحببة الى تاجور ، وظلت كما هي حتى أصبحت هذه المدرسة فيما بعد معهداً عالمياً يحضره العلماء والفلاسفة والمفكرون من جميع أقطار الدنيا . فمدرسة الغابة هي حلقة من الاطفال تلتف حول معلمها تحت الاشجار في ضوء الشمس وأحضان الطبيعة ، وتاجور يعتقد أن الطبيعة هي خير معوان للمعلم في اداء عمله . وبدأ تاجور مدرسته ببضعة اطفال بثّ فيهم تفكيره وملاحظاته ، ثم نما العدد الى نحو العشرين بعد عامين ، ثم الى ستين بعد اربعة أعوام ، والى مائتين في بضعة أعوام . وكان تاجور يرى نفس الطفل مسرحاً بكراً لمستقبل العالم الروحي والمادي ، وينظر الى هذا المخلوق نظرة تقدير ومحبة وعطف . فنظرة كاملة يرى الأطفال فيها مخلوقات لا ينقصهم شيء غير تفتح المواهب والتفكير

والاحساس . فهم حكماء وعلماء وقادة وشعراء ولكن في أكمل كاملهم، التي أحسنت الطبيعة والبيئة اليها تفتحت عن جمال وروعة ، وان أهملتها ذبلت موءودة ، وخسرت الحياة أعز ما تملك لأن هؤلاء هم ذخرها ومستقبلها . والاطفال يجب أن يفهموا أنفسهم ويقبلوا على الحياة من وجهها الحق وان يدركوا ما فيها من جمال وأسرار ، وان يندمجوا في الطبيعة ويعتبروها أمًّا محببة اليهم لتشبع فيهم الروح العليا، فتعمر أعماقهم وحركاتهم عن الحق والحب والخير، وليدركوا بهذا الحنو المشترك بينهم ، ثم بينهم وبين الكائنات الأخرى ، انهم جزء لا ينفصل من وحدة تامة لهذا الوجود تشعر بشعور جامع واحد

وادراك الطفل لشخصيته وتميزها ، لا في حدود الانانية والأثرة ، ولكن في حدود الروح الجامعة للحياة كلها ، هو العمل الأول لنظام تاجور المدرسي، ومن هنا كانت الارادة في مدرسة تاجور، ارادة جامعة وليست ارادة فردية، هي وحي الجماعة صادر عن مباعث الخير والفضيلة واتجاه الروح العالمي ، وهذه الارادة متى توحدت في اتجاهها وكانت صادرة عن شعور واحد روحي أنتجت تفكيراً متحداً يخدم البشرية كوحدة منسجمة متصلة غير متعارضة في أهوائها ومشاعرها ومداركها ومقاصدها في الحياة . فالخير والوصول الى الحق من طريق ادراك النفس ، والشعور بالشخصية الجامعة ، هو هدف تاجور التعليمي في مدرسته . ولقد وضع لمدرسته منهاجاً يومياً وصفهُ أحد تلاميذ تاجور فقال :

« ينهض جماعة الانشاد من الاطفال في مطلع كل يوم حوالي الرابعة والنصف صباحاً يرتلون أناشيد هندية عادية ، وهم يجوبون المدرسة لايقاظ زملائهم بعد غفوة النوم وهدوء الاحلام . فاذا ما زال منهم نعاسهم هرعوا الى جمال الفجر يترقبون عليه في هدوء واستلذاذ يقظة روحية ، تسري الى نفوسهم براعة الجمال ورهبة القوة القديرة الجامحة التي تسلخ من الليل نهاراً ونوراً ، وتبعث من الهجوع حركة وحياة ونشاطاً في جميع الكائنات — فاذا ما انتهت فترة التأمل الاولى، انصرف الاطفال الى تنظيف غرفهم بأنفسهم ولم ما فيها من شعث ، فاذا ما انتهى هذا الدرس النفسي الذي ينتهي الطفل معتمداً على نفسه محترماً جميع الاعمال وان صغرت ، توجه الاطفال الى ملاعبهم الرياضية في طلق الهواء وجمال الطبيعة بين الشجر العالي يروضون أجسامهم ، حتى اذا ما أخذوا حظاً من رياضة الابدان انصرفوا الى حمامات باردة تزيل عنهم العناء وتكسبهم النشاط ، فاذا تم كل هذا انخذ كل طفل معزلا له في الحديقة الكبيرة ، وقد عكف على نفسه يفكر فيها وفيما حوله في صمت عميق لا يغطه حديث ولا تشوبه حركة ، فاذا ما لبث على هذه الحال نحو الربع من الساعة متأملا مفكراً جاهداً مطالب النفس ، انطلق الى صحن مدت فيه موائد الانظار ، حتى اذا ما انتهى الاطفال من هذا ، دعيوا جماعة الى الصلاة يؤدونها في خشوع وتفكير وايمان ثم يبدءون دروسهم بنشيد مقدس كل يوم ، وتبدأ الدراسة في الهواء الطلق حلقات في منتصف الثامنة ، حتى ينتصف النهار ولكل طفل وسادة من القش يفترشها وقرطاس ومحبرة وقلم يحملها معه كما ينتظم في حلقة الدرس . أليست هذه هي روضة الاطفال وضعت الهند نظامها منذ أجيال بعيدة في نظام مدارس الغابة التي كانوا يسمونها (آسرم)

وفي الساعة الثانية عشرة يتغدى الاطفال وينتهي برنامج الدراسة اليومي مراعاة لحرارة الجو في بلاد الهند ثم ينصرفون بعد ذلك الى بعض شئونهم فيلعبون ألعابهم الرياضية ويستفكرون دروسهم او يعملون في الحديقة فلاحة وتنظيماً وريا ، ثم يخرج بعض التلاميذ جماعة منتظمة الى القرى المجاورة لارشاد أطفالهم الى الخير وتدريبهم على ما نشأت عليه أنفسهم من تعاليم المدرسة ، وبهذا يتم الاصلاح في أوسع نطاق ، ولا يقتصر

على طلبة المدرسة وحدها . وينشأ التلاميذ وفي نفوسهم نزعة الى الاصلاح والارشاد والتعليم حتى اذا ما اقترب النهار من ازوال عادوا الى مقاعدهم يستحون فيها ، فاذا ما أخذوا حظهم من النشاط رجع كل الى فكرة الهدوء في معزله يفكر ويتأمل ويستعرض ما كان منه طول اليوم ، محاسباً نفسه مذكرها دائما بفوائد الروح فيها . ثم يجتمع التلاميذ للاستماد والترتيل لقطع مقدسة ، ثم يتناولون العشاء فاذا ما انتهوا منه عكف الاطفال على قراءة القصص التاريخية وتمثيل مسرحيات صغيرة او ترتيل الاغاني الهندية الجميلة — وأما الكبار من الاطفال الذين يهيئون الامتحان بالجامعة فيباح لهم الدرس والمذاكرة بعضاً من الليل ، ثم يأوي الجميع الى مضاجعهم في منتصف العاشرة وتطوف جماعة الانشاد منشدة أناشيد المساء ، وهكذا ينتهي اليوم كما بدأ بالاغاني والانشاد »

* * *

والناحية الاجتماعية التي ينشأ عليها الطفل في مدرسة تاجور منتزعة من عقيدة تاجور العالمية ، فهو يبتعد بالاطفال عن روح الاثرة والانانية ولا يلقي في نفوسهم بأنهم هنود أو من طائفة خاصة لها وطن ولون وعقيدة وجنس خاص ، وانما يأخذ بأيديهم الى باب الانسانية ، فيطبع هؤلاء الاطفال بطابع طالما بعيد عن روح القومية الجامح ، ويبعث في قلوبهم حب الوطن على انهُ فضيلة ، والفضيلة لا تجر النفس الى شر أو عنف أو عصبية . ولعل آراء تاجور التي بيّنها في هذه الناحية في كتابه «البيت والعالم» هي المبادىء الاجتماعية التي ينشىء عليها اطفال مدرسته . فهو في هذا الكتاب لا ينظر مطمئناً الى الوطنية النعصبة نظرة تقدير ، بل يراها عملاً عصبيًّا صادراً عن الانفعال والاثرة التي تدفع بالبشر الى الحروب دائماً . فأطفال تاجور يعرفون وطنهم ويحبونهُ كما يحبون أمهاتهم وآباءهم ، ولكنهم يعدونهُ وحدة منسجمة في العالم الذي يجب ان يُحَبَّب ويؤثر في القلب والتفكير في سبيل الانسانية جميعها. ومن قواعد فلسفة تاجور ألاّ يؤثر العنف في أي عمل ، وقد تدعو الوطنية الى التطرف والعنف ، بل انها قد تدعو الى إزهاق الارواح والكفاح الدموي . وتاجور يأبى هذا ويرفضه أشد الرفض ، لانهُ ينشد المثل الأعلى في الوطنية الذي تفسره البشرية تفسيراً صحيحاً يرضي الضمير الانساني

فاختلاف الاجناس طبق اختلاف الالوان واللغات ، ليس عملاً من أعمال الأنسانية ، وانما هو عمل من اعمال التفكير الشاذ المنحرف عن الحق وطبيعة الحياة — وتاجور لا ينكر اختلاف المواهب ، ولا اختلاف البيئات ، ولكنهُ ينكر ان يكون هذا الاختلاف مثاراً مشكلات اخرى ، بل يجب ان يكون دائماً وموجباً للتعارف والتزاوج والائتلاف ، ولهذا ينكر تاجور ان تتناحر الوطنيات المختلفة ، لانها تجرُّ الانسانية الى نوع من الوحشية البربرية في صورة من الحرب والغزو واهدار الانسانية[1]

واطفال مدرسة تاجور هم في الحق مخلوقات كاملو الرجولة فالرجولة منطوية فيهم حتى يأتي

(١) البيت والعالم : لتاجور

أولها، فتظهر ناضجة غير مبتسرة، وهم كما يدركون شخصيتهم ويغلبونها على أمورهم ونظام معاشهم يختارون من بينهم كل أسبوع رئيساً عليهم، كأنهم يتدربون على النظام الانتخابي الديمقراطي في حياتهم؛ فهم لا يدعون رئيساً يستبد بالغلبة وطول الأجل عليهم فيسري حب السيادة والسيطرة الى بعضهم، ويشعر بعضهم بمذلة الرآسة والقهر الروحي؛ إنهم يرفضون هذا ولكنهم يحترمون النظام تدبيراً للحياة وتقديراً لسلوكها وطبيعتها، وشخصيتهم في هذا هي مصدر تقديرهم واستقلالهم في الحياة — وهم في المدرسة كجماعات النحل — لكل جماعة رئيس ينتخب ولكن الى أجل، ليسودها روح التعاون التام؛ ولهم محكمة من أنفسهم تفصل في شئونهم اليومية وما يقع من بعضهم من مخالفة لنظمهم وتعاليمهم وسلوكهم؛ ولا يشترك فيها أساتذة المدرسة مطلقاً الا اذا كان الأمر جد جليل، وهذا في النادر القليل

ومن أهم المبادىء العامة ألا يتسلط المعلم على ارادة تلاميذه وألا يشعرهم بنفوذه عليهم بل يجب أن يتعاون المدرس مع تلميذه على الفهم والدرس، وكثيراً ما يخضع المدرس لارادة تلاميذه متى كان الحق في صبيلهم؛ وليس في المدرسة عقوبة بدنية لأن التعذيب البشري محرّم وإجرام، فالعقوبة ممنوعة ومقطوعة. والعقوبة القاسية عندهم أن يقاطع المذنب فلا يلتفت اليه تلميذ أو معلم، بل يهمل ويترك. وفي هذا بلاء له ودعوة الى التهذيب والاصلاح — ومتى اعترف التلميذ المذنب بخطئه كان هذا استغفاراً كافياً ليعيد اليه المجتمع المدرسي حقوقه واعتباره

فمدرسة تاجور من هذه الناحية عالم صغير ولكنه غير محدود، بل هو العالم الكبير المنطوي على نفسه الى حين، وهي تستمد مقوماتها من روح صاحبها، فهو زعيمها الروحي وهو أب لأطفالها سعيد بهم، بل هو كما يقول عن نفسه « انني مع أطفالي أسعد مني في أي مكان آخر » وفي شخصيته الجاذبية القوية التي تجمع اليها جميع التلاميذ؛ فهم يشعرون بأنهم متقابلون في شخصيته الجامعة، يستمدون منها الباعث الحي لا يقاظ نفوسهم وقلوبهم الى المعاني السامية التي تدعو اليها شخصية تاجور، وهو يعمل دائماً على اذكاء شخصية أطفاله وتنميتها وبث الروح فيها لتنهض متماسكة بقوتها وحيويتها الغريزية، لأن تاجور يدعو دائماً الى أن تكون شخصيتنا أول شيء نعرفه في أنفسنا، فهي مصدر تفكيرنا، ومجال الدرس والتعليم

« في أنفسنا يجب ان نفكر ونتدبر، وفي أنفسنا يجب ان نرى صور الحياة والانفعالات والرغبات والغرائز والميول واتجاهات الخير والشر، وفي شخصيتنا ينطوي العالم الروحي والعالم الحي معاً، ويجب ان تصدر معارفنا ومشاعرنا وأدبنا وفننا مطابقة لشخصيتنا التي يجب ان تكون مدركة ذاتها ومتصلة بالعالم وما فيه من أسرار، وكلما اتسعت دائرة معارفنا الشخصية بالأشياء الخارجة عنا كنا أكثر حرية » (١)

(١) عن سعد هانا

وفي الحق ان هذا المذهب الذي يدعو اليه تاجور في مدرسته ، مذهب تحريك الشخصية الفردية وجعلها حرة للبحث والتنقيب والنظر ، في الحق ان هذا المذهب هو مذهب هندي قديم دعت اليه أديان الهند ونصَّ عليه في تعاليم « يوبانيشاد » التي تبحث عن سر الفرد في روحه ، وتدعو الانسان ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة ويهرجها الكاذب ، ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي أو الجوهر الأوحد العام الذي يطلقون عليه اسم « برهمان »

هذه هي مدرسة تاجور التي نشأ فيها أطفاله الى عام ١٩٢١ وكان يقف فيها بينهم ويشترك معهم في اخراج مسرحياته يعلمهم الاداء والنطق والاخراج ، ولا يضن بتفكيره الفلسفي الكبير على دائرة الطفولة الوديعة الساذجة ، بل كان يرى في هذه الدائرة معيناً له على فهم حقائق الاشياء ، فكان تاجور يعلم نفسه الاطفال الآداب والقصص والترتيل والغناء ، ويثير في نفوسهم دائماً الشغف بالفنون من رسم وتصوير وشعر وموسيقى — وهو رجل يقول عن نفسه إنه ليس بعالم من علماء التربية ، ولكن مهمتهُ أن يحبّب الطبيعة الى الطفل ويستر في العناية بالدراسة بين الطفل وبين البيئة التي يعيش فيها

وعندما عاد تاجور سنة ١٩٢١ الى بلاده من رحلة طاف بها ممالك أوربا وأميركا ، أدرك مما شاهد ، بعد الحرب العالمية ، ان المدنية الاوربية تسير الى انهيار لا واقي منهُ ، بغير الدعوة الى مبادىء السلام الصحيحة التي لا تنشد بعقد معاهدات او معاهدات ، وانما تنشد باشاعة الوحدة الروحية بين الجماعات والامم ، واثارة الانسانية والخير في جميع ما يصدر عن الانسان من تفكير وشعور وعمل ، وأيقن أن أعصاب الشباب في الغرب مسخرة لأهواء ومطامع فتاكة وتعاليم خطرة من شيوعية الى فاشستية الى فوضى في التفكير والعقائد ، الى أنانية وأثرة تعمل في الخفاء كالبركان الصامت يدوي حرقاً تحت أطباق الارض يلتمس المنفذ والمخرج للثورة والهياج . فكّر تاجور طويلاً فهالهُ الامر وخشي على المدنية كل خراب ان تذهب ضحية حرب فتاكة مقبلة فاستقر بهِ الرأي على ان يحوّل مدرسته « شانتي نكتان » الى معهد عالمي سماه « فسفا بهاتي » يقوم على اساس الفكرة الانسانية التي بشّر بها بين الهنود ، على ان يكون معهداً عالياً للدراسات الروحية والانسانية العليا ، يحتفظ بالمقومات الاساسية لمدرسته ، وليكون دعامة قوية لتطهير المدنية من دائها الكامن في قلب الغرب ، وقد أعلن تاجور يوم افتتاحه

« يجب ان تسمو الاثرة وان يزول التعصب للجنس واللون »

وكان تاجور يرمي بهذا الى غرض سام نبيل عبَّر عنهُ عند ما قال

« اني أطمح الى إنشاء انسان كامل خيّر ، وان يكون منهم هذا الجيل تمثل مصاعب البذل في سبيل الخير وان يتساون في دفع الاثرة عن نفسه حتى يتسع جانب الخير في الانسان وتسمو منه عوامل الشر »

سمع العالم هذه الاغنية الحلوة أغنية المحبة والسلام : تطلع من قلب الشرق الحكيم الى عالم ما زالت الدماء تفور في نواحيه بعد حرب طويلة طاحنة تساوى فيها الغالب بالمغلوب ، وأهدرت فيها كرامة الانسانية ورجولتها ، استمع العالم الى أغنية تاجور من قلب الشرق الحكيم ، فالتفت الى معهد تاجور ، وأقبل عليه الفلاسفة والعلماء والحكماء من كل قطر يجلسون اليه جلسة التلاميذ ، ويسلك معهم تاجور مسلك الزملاء ، متخذاً مدرسة الاغريق مثلاً له ، فينتقل وتلاميذه الى شجرة وسط الطبيعة الرحبة ، حتى اذا ما استقر بهم المقام ، كان الحوار وكان الدرس الهادىء ، وكان الحق الواضح مستلهماً جلال القدرة الخالقة في ايجاد الصلة الروحية بين الانسان وما حوله من كائنات وحقائق ، داعياً الى ازالة الحواجز بينه وبين نفسه ، وهو في محاضراته شاعر ومغنٍ وقاص وناقد وفيلسوف واديب وفنان ، وبرنامجه الروحي يستمد مقوماته من تعاليم « اليوبانيشاد » ومن فلسفة « بوذا » واتجاهات التفكير الحر المنسجم مع الطبيعة البشرية . وهو يبحث في محاضراته عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الى تجريد الانسان من مظاهره الباطلة ليسطع فيه النقاء المستكن في ذات نفسه ، وينبثق فيه هذا الجوهر الاوحد الذي يسمونه (برهمان) وهذا الجوهر هو الحقيقة التي يستحيل وجودها في العالم الخارجي للانسان ذي الظواهر المطردة الزوال ، انما يمكن الوصول الى هذا الجوهر بالروح التي يسمونها (اتمان). وليست هذه الحقيقة الباطنة كالحقيقة التي ينادي بها فلاسفة الغرب ، أي استكمال الشخصية من عواملها ومظاهرها الخارجية بل هي على العكس

« فناء الشخصية المفكرة في القوة الخالقة التي تهبنا التفكير ، فهي فناء الشخصية الفردية في ينبوع لا شخصي ، او تكون الشخصية الى الجانب اللاتلبي من النفس ، هذا الجانب الذي يمثل الايمان بالله والاتصال بالقدرة الخالقة المدبرة الوحدة للكائنات جميعاً ، والذي لا يمكن للعقل أن يكتنفه او ان يستولي على هذه القوة الجامعة بادراكه » (١)

لان العقل وان طلب المثل الأعلى فهو بنزعته الانفصالية ضعيف عاجز عن الاستيلاء على جميع الحقائق فكيف له ان يميل الى التحليل والانطلاق ، وان يندمج في صورة هذه القوة الخالقة التي يشعر معها بأنه لا شيء

والانسان في رأي تاجور :

« كائن موزع بين الروح والطبيعة ، بين الروح والعقل ، فيه نزعات تسمو به الى عالم اللانهائية وفيه نزعات تنحط به الى الانانية والاثرة ، فهو بين تيارين متجاذبين ، تيار يجذبه الى الروحية غير المحدودة ، وتيار يدفعه الى المادية الضيقة التي تظلم عليه الحياة ، وتوصد دونه أبواب القلب والسمو والتطور بالكمال المطلق . وان فوز الانسان في هذه المعركة ليسموه أولا ألا يكون متشائماً ولا يكون مرتبطاً بأثقال المتناقضات والشبهات في الحياة ، بل عليه ان يدرك الحقائق سليمة جريئة بعيدة عن ألوان اليأس والشك ، وان يؤثر

(١) عن تعاليم اليوبانيشاد

الطبيعة ورفع الحواجز بينه وبين نفسه ، ثم بينه وبين الطبيعة ، هذا هو السبيل الذي يرفع عن كاهل العقل والنفس أثقال المادية المحدودة ، فليست الحياة وهماً ، وليست الحياة الا الانسان الحي الخالد الذي يطلب جانب الخير في نفسه دائماً بما الى الانسجام في حقيقة الكائن الاعظم من طريق ادراك كنه الحياة وما بعدها ومن طريق البحث بأسرارها والتعرف اليها والاستماع الروحي بجمالها وجلالها — وليست الصوفية — بحالها التي تفهمها الكثرة الخاطئة — هي الطريق الى هذا لانها وجه عابس تطل به الحياة . وهذا البؤس ينشأ عنه تشاؤم يطفىء بهج الحياة ويعدل عن أسرارها عدولاً تاماً لا يرينا من الحياة غير لون داكن ، ولا يجعل منا العقل الذي يدرك ما في الطبيعة الوهوبة من جمال — فهذه الصوفية التي تحتقر الحياة وتزدري الانسان ، انما هي عمل هادم لشخصية الوجود تحول بين الانسان وبين الاتصال بالحق المطلق وتقطع العلاقة بين التفكير البشري الذي يتطلب دائماً للمثل الاعلى وادراك ما خفي عنه وبين الاستيلاء على الحقائق الثابتة في الوجود من طريق الفهم والادراك والتمييز ، فهي خذلان للقوة التي أودعها الله من سره في الانسان وهي من ناحية أخرى تحمد مشاعل الروح ومداركها لأن الروح لا تكون متحدة إلا اذا يسر لها الطريق الى ادراك الحقائق من سبيل فهمها والايناس اليها والتمازج بها ، ولا يمكن ان يكون هذا إلا اذا ابتهجت الروح بأسرار الحياة ومباهجها ، وأدركت ما في الطبيعة من عذوبة ولين ويسر ، واستمرأت ما أحل لها ، وابتهجت به ، وعرفته معرفة تامة — وهذه المعرفة تدعو الانسان الى ان يتعاون مع الطبيعة ليفهم أسرارها ويتهيج بالوصول الى حقائقها ، فهو لا ينظر الى الطبيعة نظرة السيطرة والغلبة ولكن ينظر اليها نظرة التفاهم والتعاون والشعور بأنه جزء لا ينفصل عنها ، وهذا يجعل الانسان اوسع ادراكاً وبسطاً للطبيعة وهذه الحقيقة هي التي شغلت تفكير فلاسفة الهند منذ القدم وهي تبدو واضحة في ازالة الحواجز بين الانسان والطبيعة واقامة حضارة تنهض على التعاون بين العقل البشري وبين الكائنات — وأما حضارة الغرب فتنهض على أساس مناقض على أساس الخصومة بين الانسان والطبيعة ، فهو يشعر دائماً بأنه يجب ان يتسلط عليها وان يقهرها وان يستغل منها مصادرها ويدل اسرارها ، ولهذا كان الانسان الغربي لا يدرك من الطبيعة إلا ما يصيبه منها من مادة وهو بعد هذا شاعر بعزلة عن الوجود ، وفردية قاسية تدعوه الى أنانية وانزعة ميتة ، لا تلبث ان تفيض من نفسه فتخرج من دائرة كانت بينه وبين الطبيعة فاذا بها أنانية شاملة لنطاق الفرد والجماعة ، ثم لنطاق الجماعات بعضها مع بعض وفي هذا المترك تفري مباهج الحياة وتندثر القوى الروحية من الحضارة فتبقى حضارة جافة يابسة يصيبها اللهب القريب فيحرقها (١)

وليس معهد تاجور مقتصراً على برنامج فلسفي يدرس ، ولكنهُ معهد وطني متى كانت الوطنية تسع المعنى الانساني الشامل ، فلقد فتح ابوابهُ لجميع المنبوذين عندما دعا الهامها غاندي الهنود الى نبذ الفوارق بين طوائفهم ورفع المنبوذين الى مصاف الانسانية . ولقد أكبر تاجور هذه الدعوة وأيّد غاندي فيها وانضم اليه ، ولم يكن من مؤيديهِ السياسيين الى سنة ١٩٣٢ — لان تاجور الذي يدعو الى الوحدة البشرية ، يهزلهُ أن يرى في الهند وطنه الحبيب ، فريقاً يسمى الانجاس بنبذه أهل الهند جميعاً فلا ودّ ولا تعارف ولا اختلاط ولا كلام ، وهم قوم نبذتهم الآلهة فصغر شأنهم وانحط قدرهم الاجتماعي فبتر عن الهند نشاطاً لو عاد اليها لسعدت حركة ونماء وثقافة ، ولزال عنها هذا العار الذي لصق بها عندما خيل اليها ان أديانها تدعو الى نبذ فريق من أهلها ، ولا تعدهم آدميين بل مخلوقات دانية الى البهائم . هال تاجور هذا الوهم الاجتماعي فانضم الى غاندي في صومه الذي فرضهُ على نفسه

(١) تلخيص عن الفصل الاول من سادهانا

أو تعود الهند وحدة سليمة من هذا المرض الثاثي بين أهلها منذ آلاف السنين يومئذٍ صام تاجور على الرغم من شيخوخته وأمر تلاميذ جامعته بالصوم ، وجمع الوفاً من طبقات السافلة النجسة في مدرسته وأكل وجميع أتباعه معهم فأصبح من ذلك الوقت من مؤيدي المهاتما غاندي في آرائه الاجتماعية

ولقد تكلم تاجور في مدرسته ، داعياً أهل الهند ان يرفعوا الى طبقة الانسانية اخواناً لا ذنب لهم ان تسفل بهم الطبقات الاجتماعية الى درك يدنيهم من البهائم فقال :

« في اليوم الذي بدأ فيه المهاتما صومه ، رأيت الظلام قد انتشر فعم بلاد الهند جميعاً ، حتى ان الشمس قد كسفت ، فالناس في حيرة وقلق شديد ، ان المهاتما الذي تاجر بتضحياته الماضية روحاً جديداً في الهند يقدم الآن حياته في سبيل وطنه العزيز

مملكة الروح

« إن لكل قطر حدوداً معنوية باطنية كما له حدود مادية ظاهرة . وفي الحدود المعنوية يحكم الروح ويسيس وليس للقوة المادية ان تقهر او تبطش او تستولي على أي جزء ضئيل من هذه المملكة المعنوية الروحية . والفاتحون من الاجانب الذين يغزون الاقطار يستعمرون البلاد عنوة وقسوة ليس لهم من سبيل وان قهروا حدود البلاد المادية ان حدود هذه المملكة المعنوية ، وسلطانهم لامحالة زائل يوم يزول نفوذهم عن البلاد . عندئذ تنهار عظمتهم الموهومة لانها عظمة قائمة على القهر والباطل . وأما الحكومة التي تتذرع بالحق وتتخذ الصدق والخير وشاح النصر الروحي فتفتح البلاد فتحاً روحياً . فهي حكومة خالدة الى الابد . هذه هي حكومة للهاتما غاندي . لقد ضحى المهاتما بجميع ما لديه من عزيز في سبيل غايته الروحية وها هو ذا يضحي بروحه التي هي جديته في سبيل ما يبغي . وانه لامر جليل هذا الذي يقدم عليه غاندي العظيم . وان قلوبنا لتجزع وتفزع لتهمم وليشتد بنا التكرب كما فكرنا في الامر ووجدنا المهاتما مصراً على تضحية نفسه

« وليس في جزعنا أي عجب . انه لعسير ان نطلق على اخلاق الروحية الباطنية أسماء ما نرى من الآثار المادية التي تفسها . ثم نقابلها مقابلة واقعية ثم نودعها وداعاً لا لقاء بعده . لقد اقترح زعماء الرأي فيه ان يصوم الشعب اليوم . وهذا الصوم وان كان على خير وبركثير ، إلا أني أخشى ان يحسب الناس صومهم كصوم المهاتما غاندي . إذن لحقت علينا المصائب ولارتكبنا اثماً عظيماً . لان نكون غير مقدرين لحق قوته ولا منصفين لصدق جلاله

رسالة الى العالم

إن التضحية التي قدمها المهاتما غاندي ليست تقليداً دينياً . بل هي رسالة بليغة الى الهند والى العالم البشري كافة . فعلى كل من يريد ان تقبل هذه الرسالة منا ان نقابلها بمعانيها الصحيحة وحقائقها الناصعة . وان نفهمها ونتدرسها درساً جدياً . ألا ان التضحية منحة لايمكن ان يتقبلها الانسان قبولا حسناً ، إلا اذا جاد بسخاء فليس ان نقدر هذه الرسالة

الفوارق الانسانية

لقد نشأ الخلاف وقام النزاع في البشر منذ فجر تاريخه الاول . ولقد سبقت بعض الجماعات وتقدمت غيرها مصادفة . ثم أخذت تستغل ضعف الضعفاء ثم تتكبر عتواً منها . ثم تحافظ على التياد والسلوك . إن هذه العادة قديمة في البشر ولكن على الرغم من قدمها نجزم بأنها ليست من الانسانية في شيء . وليس لامة متحضرة ان

تبني عظمتها على اذلال الذين جردتهم من انسانيتهم ظلماً وعدواناً وحبست أرواحهم في سجون مظلمة لا يسكنها النور

إن الذين تظلمهم على أمرهم سيغلبون . انهم يحملون من بينهم سمّاً يبتلعهم وبين الرقي والتقدم . فالخطر الذي تحمل به ظهورهم انما هو واقع على ظهر البلاد كلها فتذل معهم وتسقط بسقوطهم . انك لا تهين الانسان بل تهين البشرية كلها

السجن

ولي الهند ألوف محتشدة من البشر مقيدون في السجون بالاغلال والحديد دون ان يحاكموا أمام المحاكم والقضاء . لا يعاملون المعاملة الانسانية إذ أرادت الحكومة ان تنال منهم . ولكنهم سجلوا عليها وزرا كبيراً . بل أنهم قضوا على هيبتها وسمتها قضاء لا مرد له . إن تعذيب المسجونين سواء أسياسيين كانوا أم غير سياسيين يثبت ان البربرية القديمة لا تزال قائمة في صميم المدنية

ونحن معشر الهنود قد خصصنا قرناً من أبناء بلادنا بالذل والظلم . ووضعنا له اسماً مهيباً . إن السجون لا تبنى بالآجر والاحجار لتطيل ان تحريد الانسان من اعتباره ، واهدار انسانيته ، هو السجن الحقيقي . وانه يدل على صغار نفوس الذين يقومون دعائمه لا على صغار الذين يعذبون فيه

الجرم الاثيم

ولاريب في ان التعوب والجماعات البشرية يمتاز بعضها عن بعض بمائتصف به من فوارق طبيعية . ولكن الحكم على شعب او جماعة بأنها خلقت ذليلة سافلة ، وانها يجب عليها ان تبقى كذلك الى أبد الدهر . وانها لاجل ذلك يجب ان تجرد من سائر حقوقها الانسانية ، هذا الحكم الجائر انما هو ظلم شنيع لايضاهيه ظلم لان شناعته لا تزال تزداد وتقسو مع الزمن

نحن نزعم أننا أفضل من شعب الانجاس . ولكن الحقيقة ان هذا الشعب عندما ينفصل عنا نسقط ويهوي كيانا ونصبح أكثر خلق الله ذلة وخنوعاً . ونحن معشر الهنود لم يدب فينا هذا الضعف إلا من هذا التفريق الباطل . بل انه هو الذي سبب جميع مرائتنا التاريخية . وكل قطر تفشر فيه هذه الفوارق يختل نظامه ويضطرب ميزانه ثم يسقط الذين علوا فيه كبراً قبل ان يسقط الذين حكم عليهم بالذل والعار

إن البلاد الغربية قد نشت فيها مثل هذه الفوارق . فعمدت الشقة بين الغنى والفقر . وكنت تحت هذه الفوارق براكين مستعرة لا يعلم أحد متى تنفجر فتقضي على المدنية الغربية قضاء تاما

خطأ الهند القديم

لقد شرح المهاتما غاندي المخاطر العظيمة التي تهدد بلادنا من طريق هذه الفوارق البشرية التي هي لعنة ماحقة على الانسانية . ولكنه لم يطنب في شرحها كما أطنب في مناقع النهاش الوحشي . حتى وصلت الحالة الى هذا الحد المشؤوم . ان الخطأ الذي ارتكبناه في تقسيم شعبنا ، طبقات غير متساوية الحقوق لخطأ قديم راسخ في قلوبنا . انه قد قوى أعداءنا وأضعف شعبنا

ومن الميسور ازالته من جذوره . وان شعبنا هذا هو الذي حمل المهاتما غاندي على ان يعلن الحرب الشواء عليه ونحن ان فقدنا غاندي لسوء حظنا في هذه الحرب المقدسة فسؤوليتنا ستكون عظيمة وسيخطر كل واحد منا ان يخوض غمار هذه الحرب الى النهاية حتى ينتصر فيها او يذهب شهيداً لبدأ سام

ولقد أحسن المهاتما غاندي الينا عندما قسم هذه الحرب المباركة هدية غالية لشعب . فليتنا ان قبلها في تواضع وحزم وشمم . وان قبلناها لا عين كما هي عادتنا ، فاننا سنفقد هذه الروح الكبيرة التي استثارت في المهاتما الكبير وسنسقط في هاوية سحيقة نلق فيها الردى ولا بعث لنا منها أبداً ونفقد فيها غاية وجودنا الى آخر الدهر

مدرسة تاجور ليست مدرسة محصورة البرنامج محدودة العمل ، ولكنها مثابة يدعو فيها تاجور الى الحق أيما كان لون هذا الحق ، فهو يدعو فيها الى الوطنية عند ما يجد الوطنية تأتلف

والدعوة الانسانية التي تدعو اليها رسالته ، وهو يبشر فيها بآرائه في السياسة والحكومة عند ما يجد وسائل الحكم تنحرف عن قواعد الحق التي تشملها رسالته الكبيرة الى العالم ، وهو يتخذ مدرسته لبث الآراء التي تأخذ بثقافة الشعب الهندي الى الطريق المستقيم الذي تهدي اليه عقائده الصحيحة ، فليست مدرسته معهداً للعلوم ، ولا مجمعاً للابحاث التاريخية ، ولا معبداً للصلاة ، ولا متحفاً للفنون والجمال ولكنها جامعة تحوي كل هذا ، ومنبراً عاماً يشمل « جميع مطامح النفس »

فالمعنى الشامل لمدرسة تاجور هو هذه الطوائف من المفكرين والباحثين في جميع أقطار الأرض دون تمييز للون أو جنس أو دين ، وتبشر هذه المدرسة بدعوته عن ايمان حق ويقين ناصع ، لان تاجور لم يكن هنديًا ولا قوميًا في دعوته ، ولكنه اتخذ من عقائد الهند وفلسفة الشرق مبادىء صحيحة للدعوة الى إنشاء انسان كامل ، ومدنية بشرية لا تعرف اللون والجنس والوطن

ولعلنا نستطيع ان نلخص برنامج مدرسة تاجور في انواد التي جمعها في كتاب سعدهانا Sad Hana ، والتي قال عنها انهُ اعتاد أن يتحدث مع طلاب معهده فيها ، فهو دائماً يحدثهم عن علاقة الفرد بالعالم ، وهو يحدثهم عن وجدان الروح ، ويحدثهم عن مشكلة الشر في الوجود ، ويحدثهم عن معضلات النفس ، والحب ، والخلق كما يحدثهم عن تحقيق الجمال وادراك اسراره الروحية ، ثم يفيض عليهم دائماً حديثه في الجانب اللانهائي من حياة الانسان

« طا تتمة »

لماذا خبا المصباح ؟
لقد كنت أسدل عليهِ عباءتي خشية أن تعبث بهِ الرياح. لهذا خبا المصباح
لماذا ذبلت الزهرة ؟
لقد كنت أضمها الى صدري في لهفة الحب ، لهذا ذبلت الزهرة

***

لماذا جفّ الغدير ؟
لقد كنت أعترض مجراه بالسدود ليكون لي وحدي ، لهذا جفّ الغدير
لماذا انقدّ وتر القيثار ؟
لقد كنت أحاول ان أوقع عليهِ لحناً لا يحتمله ، لهذا انقدّ وتر القيثار

« من البستاني : لتاجور »